# أدب الرَّحلة وتمثّلاته في رواية ما بعد الحداثة قراءة نصيّة في رواية (النُّوتي) لحسن البحار


م.د. أمل سلمان حسان

وزارة التربية / المديرية العامة لتربية الكرخ الأولى

- معهد الفنون الجميلة

## مستخلص

أعاد صدور كتاب الاستشراق لادوارد سعيد عام ١٩٧٨م الاعتبار مرّة أخرى لما يُسمّى في الأدبيات العربية بـــ(أدب الرحلات) بعد سيرة تشتت وضياع وإهمال من قبل الكتّاب والنقاد والباحثين، وقد وظفه إدوارد في الحقول المعرفية المختلفة لتحليل الخطاب الغربي ومعرفة السُبل التي سلكها الأوروبيون في تصوراتهم ورؤواهم للأجناس الأخرى في الشرق، وانتهى هذا الاتجاه تقريباً بحلول ما يُسمّى بـــ(النظرية الاستعمارية) أو ما بعد الكولونيالية عندما أصبح معها نقد أدب الرحلات مشغولاً بثنائيات مطلقة من قبيل، الشرق والغرب، الأوروبي والآخر، المُستعمِر والمُستعمَر، ونحن وهم...الخ.

وفي زمن الدَّعة والاستهلاك والاجترار تبرز على الساحة الثقافية والأدبية رواية (النُّوتي) للروائي العراقي حسن البحار، الصادرة عن دار الرافدين في بيروت عام ٢٠١٧، معرضاً للنقد الذاتي والحضاري والاجتماعي والسياسي والثقافي، حاول فيها مبدعها الابتعاد عن تلك الثنائيات وركز فيها على ثنائية الآخر أنا، المتمثل بالإنسان وذاته أو نصفه الآخر، في رحلة بحرية مغايرة يمرُّ بها في دول مختلفة ويرسو في موانئ متعددة، حيث يمرر مرحلة تاريخية عصيبة من تاريخ العراق المعاصر وهو يسترجع الأحداث، ويقف على انعكاساتها على الإنسان، إذ انطلق الراوي من الواقع وانتقى منه الانطباعات المؤثرة القوية ومزج ذلك بخياله الخصب الخلاّق.

ومن هنا نحاول استنطاق النوتي ليبوح بالكثير أدبياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً وفكرياً عبر قراءة نصية تكتنف من النص الموازي وتعاقده الدلالي والنص الإبداعي وتقابلاته:



–الكلمات المفتاحية،. النص الموازي، العنونة، المقطع الافتتاحي، النص الإبداعي، الآخر/أنا، السياسة، الثقافة، المسكوت عنه.



## Abstract

The Orientalism book for Edward Saeed has been re-issued in 1978 and what has been called as ( literature of journeys) after the negligence of writers , critics and researchers . Edward Saeed has functionalized in different fields of cognition as to analyze the western speech and to know the paths the European has taken in their prospects and their viewpoints toward other sex in the east. This direction has been ended with what has been called as (theory of colonization) or after colonization when a literature of criticism became busy with absolute binaries by the east and west , the European and the other , the colonized and colonizer, we and they. ….. etc.

In the time of consumption , the novel of ( al-Nooti ) has appeared amid cultural field by the Iraqi novelist ( Hasan al-Bahar),that being issued by al-Rafidain in Beirut in 2017, exposing to the self-criticism and civilized and social criticism. Therein he tried to get away from such binaries and he demonstrated on the binary of other / I'm.



Key words: Equaling Text, Opening section, addressing , creative text , the other, I'm ,politics, culture be silent

**توطئة:**

يُعدُّ الخطاب الرحلي بشكل عام واحداً من الخطابات التي تستعصي على الانتساب النوعي، بسبب التنوع والغنى اللذين انماز بهما، سواء على مستوى الشكل أم على مستوى المضمون، إذ تتوافر فيه مادة لا ينضب معينها ليس للمؤرخ أو الجغرافي فحسب، بل تتعداه لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي اللغة والأدب وعلماء الطبيعة[١].

فهو على مستوى الشكل، نجده يضمُّ الحكاية والأخبار والقصة والوصف والسرد والأشعار، وهو على مستوى المضمون، يحتوي، معارف جمّة في المجالات كافة، الجغرافية والتاريخية والانثوغرافية والأدبية والدينية، الأمر الذي جعل عدداً من النقاد والباحثين ينظرون إليه على أنّه " شكل أدبيّ هجين ينماز بتعدد أوجهه وتمظهراته إلى حد أنّه يمكن القول: إنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماطاً خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات، الشيء الذي يعطي الانطباع بأنه شكل مائع مرن على حد كبير، إضافة إلى شدة تعقده واحتماله لأنماط وأساليب ومضامين كتابية تبعده عن البساطة الظاهرة لتجعل منه جنساً مركباً وكلياً وشمولياً وعاماً، جنس الأجناس"[٢].

ومن ثم، فهو " نوع أدبيّ غير واضح المعالم "[٣] غير أن هناك عناصراً مشتركة تجمع بين الكتابات الرحلية المتنوعة، تتمثل في الذات الحاكية، والخطاب المحكي، والموضوع المحكي عنه، وبهذه العناصر المشتركة بالإمكان حصر أدب الرحلة ليصبح جنساً أدبياً قائماً بذاته له ميزاته وخصائصه واستقلاله الذي لا يسمح للباحثين إدخاله ضمن الدراسات التاريخية أو الجغرافية أو الانثروغرافية أو حتى ضمن الفن القصصي.

شهد هذا النوع من الخطابات نكوصاً وتراجعاً واضحين، فضلاً عن قلة توليد نتاجات فكرية ناقدة ورصينة وجديدة تقف على أهم خصائصه ومميزاته.

وقد أعاد صدور كتاب الاستشراق لادوارد سعيد ١٩٧٨م الاعتبار مرّة أخرى لهذا الجنس من الخطابات، إذ وظفه سعيد في الحقول المعرفية المختلفة لتحليل الخطاب الغربي، ومعرفة السُّبل التي انتهجها الأوروبيون في تصوراته ورؤاهم للأجناس الأخرى في الشرق.

وانتهى هذا الاتجاه تقريباً بحلول ما يُسمى بـــ(النظرية الاستعمارية) أو ما بعد الكولونيالية، عندما أصبح معها أدب الرحلات مشغولاً بثنائيات مطلقة من قبيل الشرق والغرب، والأوروبي والآخر، والمُستعمِر والمُستعمَر، ونحن وهم...الخ.

وفي زمن الدّعة والاستهلاك والاجترار تبرز على الساحة الأدبية والثقافية رواية (النوتي) للروائي العراقي حسن البحار، الصادرة عن دار الرافدين في بيروت عام ٢٠١٧م، معرضاً للنقد الذاتي والحضاري والاجتماعي والسياسي والثقافي، حاول فيها مبدعها الابتعاد عن تلك الثنائيات وركز فيها على ثنائية الآخر/أنا المتمثل بالإنسان وذاته أونصفه الآخر، في رحلة بحرية مغايرة يمر بها في دول مختلفة ويرسو في موانئ متعددة، حيث يكشف النقاب عن مرحلة عصيبة من تاريخ العراق المعاصر، وهو يسترجع الأحداث ويقف على انعكاساتها على الإنسان، إذ انطلق الراوي من الواقع وانتقى منه الإنطباعات المؤثرة القوية ومزج ذلك بخياله الخصب الخلاّق.

ومن هنا تحاول هذه الدراسة استنطاق النوتي ليبوح بالكثير أدبياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً وحضارياً وفكرياً، عبر قراءة نصية له، جاءت على محورين:

- المحور الأول: النص الموازي، المتمثل بـــالعنونة، والمقطع الافتتاحي، والمقدمة.
- المحور الثاني: النص الإبداعي وتقابلاته، المتمثلة بـــ:
- الآخر/أنا
- تهميش السياسة/مركزية الثقافة
- المسكوت عنه/المُعلن عنه.

والله ولي التوفيق

الباحثة

**المحور الأول: النص الموازي والتعاقد الدلالي**

النص الموازي: مصطلح أطلق على مُجمل مكونات العمل الإبداعي بما فيه من عتبات مباشرة وملحقات وعناصر خارجية تحيط بالنص، نال اهتمام الباحثين والنقاد منذ إعلان الناقد الفرنسي جيرار جنيت cerard genette، طروحاته في كتابه الموسوم بـــ عتبات (seuils) وقد أخذت هذه المكونات أو العناصر مسميات عديدة، من قبيل، الموازيات النصيّة والمناص، ومحيط النص الخارجي، والنص المحيط، والنص الموازي، وقد آثرت الباحثة المصطلح الأخير لكونه الأقرب إلى ما تطمح إليه من التعاقد الدلالي.

وقد سبق أن استعمله الناقد سعيد يقطين، تحت تسمية المناص في كتابه (انفتاح النص الروائي) وعرّفه على أنّه تلك " البنية النصيّة التي تشترك وبنية نصيّة أصلية من مقام وسياق معينين وتجاورها محافظة على بنيتها كاملة ومستقلة، وهذا البنية قد تكون شعراً أو نثراً وقد تنتمي إلى قطاعات عديدة، كما أنّها قد تأتي هامشاً أو تعليقاً على مقطع سردي أو حوار أو ما شابه "[٤]، وتعددت تعريفات النقاد وتنوعت، فنجد ما نطمح إليه عند الدكتور جميل حمداوي، فقد عرَّفه على أنه تلك العناصر التي " تتحدث مباشرة أو غير مباشرة عن النص، إذ تفسره وتضيء جوانبه الغامضة وتبعد عنه التباساته وما أشكل على القارئ "[٥].

وهذا يعني إن النص المحيط مكون نصيّ بنائيّ يسهم في تماسك النصوص داخلياً وخارجياً ويفتح مغاليق النصوص في وجه القارئ ليدخله في جدل قرائي بين أبنية الخارج والنص الموازي وبين أبنية الداخل/ النص الإبداعي، وهذا يشير إلى أهمية المكونات الخارجية والداخلية في التشكيل والتدليل القرائي.

وسنقتصر في استنطاق رواية النوتي لغرض إجراء فعل التعاقد الدلالي على العنونة والمقطع الافتتاحي، والمقدمة.

- العنونة: بنية نصيّة تأتي على رأس الهرم العتباتي، فهي المثير القرائي الأول الذي يضبط مسار القراءة، وهي علامة سيميائية " تمارس التدليل وتتموقع على الحدِّ الفاصل بين النص والعالم لتصبح نقطة التقاطع الإستراتيجية التي يعبر منها النص إلى العالم ، والعالم على النص "[٦].

تقوم هذه البنية على سيميوطيقا التواصل بين النص من جهة، وبين مستقبلات المتلقي من جهة أخرى، " فإذا كان الباث يعمل على خلق العلاقات السياقية فإن المتلقي يعتمد على تفعيل العلاقات الإيحائية "[٧].

والنص يبقى بنية افتقار لا تعمل بمعزل عن العنونة، ولا يحمل في ذاته صفة الاكتفاء الدلالي، إذ ثمَّة توازٍ شكلي ودلالي بين العمل وعنوانه يتيح لكل منهما فرصة الكشف عن مداليل الآخر[٨]، وبهذا يُعدُّ العنوان بمثابة الحبل السري بين المقروء والقارئ يوجهه ويؤسس له أفق الانتظار فهو "يمنهج القراءة ويتحكم في تأويل النص وفي أفق انتظار المتلقي، لأنّه اقتراح عقد"[٩].

فالنوتي، عنوان الرواية قيد التعاقد، هو عنوان غريب مثير للدهشة بادئ الأمر، وسرعان ما تزول تلك الدهشة بعد أن نرصد المعنى اللغوي لهذا المقطع الذي يدل على وصف أو لقب يطلق على ربان السفينة، فهو الملاح الذي يدير السفينة في البحر، والجمع (نواتي)، وقد نات ينوت إذا تمايل من النعاس، فالنوتي، يميل السفينة من جانب إلى جانب[١٠].

هذه الدلالة حاول الروائي سحبها من حقلها اللغوي إلى الحقل الدلالي من أجل عقد حالة من التشابه بينه وبين الراوي، إذ اعتمد السرد الروائي في هذه الرواية على ما يمكن أن نسمّيه (بالراوي الذاتيّ) القريب من الراوي السير ذاتي، أو المتماهي معه أحياناً، وهذا الراوي يظهر هنا بدلالة الميثاق السير ذاتي على شكل إلتقاطات وإلماحات لها علاقة (ميثاقية) بين الراوي/ الشخصية في الداخل وبين المؤلف الحقيقي الخارج. هذه الالتقاطات بعضها يتعلق بالتشابه الحاصل بين الراوي الذاتي والمؤلف الحقيقي، من حيث الطبيعة الشخصية (ربّما)، والمرجع المكاني الوطني (العراق)، والانتماء العملي الوظيفي (البحار)، والكثير من التفاصيل الأخرى ذات الصلة بشخصية المؤلف وتجلياتها الميثاقية داخل النص، على نحو ما ستسفر عليه الدراسة.

والملاحظ هنا، أن النوتي، يحمل دلالات متعددة قصدها الروائي لتكون المركز في المتن " فهو البحّار، هو الملاح، هو القائد "[١١]، وهذه التسمية تعني الكثير، فالبحار هو من امتلك القابلية والتحمل والصبر على مواجهة الصعاب، المتمثلة بأهوال البحر وتقلباته " أن تكون بحاراً، تعني التحدي ومواجهة أهوال البحر وظلماته، الموج الذي لا يغرقني يجعلني أقوى "[١٢] فالراوي، عشق أسرار البحر، مكبراً فيه غضبه الرهيب، وصمته المهيب، ومن ثم، فقد كان

فرحاً جداً عندما أوحى إليه نصفه الآخر هذا العنوان لتسمية المكتبة البحرية التي اقترحها ربان السفينة لتكون " مملكة من الجمال "، أريدها لمن لا يقرأ أن يقرأ[١٣].

وبهذا إشارة عميقة المعنى، بليغة الدلالة تعبر عن غنى المتن وجمال محتواه، فالنُّوتي هنا، هو الذي يحرك الحدث على وفق ما يشتهي ويريد، هو ردّ فعل على الأنا المتمردة، والآخر الساكن فينا الذي يشهر سلاح الرفض والمجابهة، وما بينهما (الأنا/الآخر) عالم يزخر بالمتناقضات " ولا أنكر كان جزءاً من سبب ظهوره أنت، واقصد هنا نصفنا الموجود فينا"[١٤].

فالنوتي، هو ذاك الشخص الذي يتمايل بين الذات والآخر، وتقوم على علاقة المغايرة بين الفعل ورد الفعل، " لا أفكر في تجاوز المنطق كي لا أتحول إلى معتوه أو فاقد عقل لن أتناسى كياستي التي أحب الحفاظ عليها "[١٥].

- أي علاقة يحتاجها النوتي كي يفهم.
- أيحتاج النوتي إلى الكثير حتى يعرف معنى الخلاص.

ومن ثم، يمكن القول، إنَّ هذا اللقب الغريب، وبتوسعه الدلالي، يدل على ذلك الملاح الذي يقود السفينة، ليس كقيادة الربان حسب، بل قيادة نفسية وفكرية أيضاً، فالعنوان ينهض على ثنائية شكلت الفضاء النصي للمتن، تلك هي ثنائية الآخر/أنا، عبرت عن صراع الإنسان المعاصر وتشظي ذاته وانقسامها بين متناقضات تحكمها وتسيرها، من خلال رحلة بحرية، رحلة من الجسد والأرض والذاكرة، والخيال لأن الحياة آذنتا كثيراً، تتطلع فيها الذات إلى أن تجد نفسها حرة طليقة، تستطيع تحقيق رغباتها بعيدة عن كلِّ سلطة اجتماعية أو سياسية أو دينية، في مكان مغاير هو البحر.

وربما التفكير بإعداد مكتبة بحرية تحت اسم النُّوتي دليل أمل آخر في النهوض، وإن القراءة هما الحلاّن الوحيدان للتغلب على أزمات الإنسان المعاصر.

فالمؤلف، يلغم العنوان بطاقة عالية من القصدية في مسعى منه لخلق حالة من التمنع والاحتجاب والتستر المفضي على خلق حالة حب الفضول والشوق لفكِّ المستور ونزع الحجاب عما هو مخفي، ومن ثم الوصول إلى حالة من المتعة واللَّذة القرائية، وبذلك يكون الروائي قد خلق حالة من التوازي في العملية الإبداعية، فالبنية المعجمية والدلالية (للنوتي) لا تقود على توجيه قرائي محدد، وتضع القارئ أمام حالة تمنع تضطره إلى قراءة من نوع آخر، قراءة

تعالقية بين الداخل نصي/والخارج نصي، لغرض اختراق دفاعات المتن (تمنع النص/العنوان)، وما إن يتوجه القارئ نحو الداخل حين يجد نفسه أمام عتبة قرائية أخرى، أكثر مخاتلة ومواربة وهي عتبة:

- المقطع الافتتاحي/ أخذ بُعداً إشارياً إيهامياً بحيث خلق وضعية تواصلية قلقة بين الباث/المتلقي، عبر شفرة يفترض أن تحمل في طياتها بعداً توضيحياً يضع قدم المتلقي على طريق القراءة، إذ نقرأ " الآخر: راكب البحر الذي رافقته منذ ولادته حتى الآن يحاول تجاهلي "[١٦] فهو مقطع تعريفي، يعرفنا بالآخر الذي جاء مختلفاً وكأني، بالراوي، يعرفنا على ذلك الآخر، الذي يعلن شكواه، من ذاته التي تحاول أن تتخلص منه وهنا يجد القارئ نفسه أمام إشكالية الآخر/أنا، فهو تلك الشخصية المتشظية المتمردة على ذاتها.

نلحظ هنا أن المؤلف عمد في هذه العتبة إلى خلق فضاء جمالي اجترح من خلاله مساراً تعريفياً بالآخر، إذ أدخل القارئ في عالم شخصي صرف، ومن ثم، عمل هذا المقطع على إثارة حساسية القراءة نحو قراءة إسترجاعية تحوي في طياتها جانباً عالياً من الفضولية، وقراءة انفعالية تتفاعل فيها الذات القارئة مع انفعالات الذات المرسلة إزاء ما تطرحه وتستجيب لاسترسالاتها مع الأفكار والمشاعر والدوافع الكامنة من وراء الكتابة.

هذا التواري خلف ستار العنوان والمقطع الافتتاحي يبدأ بالكشف شيئاً فشيئاً مع توغلنا في بنية التقديم المعنونة بـــ(الآخر/أنا)، إذ ينحسر ثوب التواري عن جسد النص ليكشف عن رغبة في التحرر منك – نصفي الآخر – بدأت تتسع[١٧].

و" لقد مضى زمن طويل ونحن نعيش وسط الغبار، قدر لنا العيش في لغز، ننتمي أو لا ننتمي، هناك معاناة حقيقية، أيام الجنون والقهر في الذهن لا ترحل ".

فالآخر يمثل تلك المرحلة التاريخية التي عاشها الإنسان العراقي ما بين حروب لا تنتهي أكلت الأخضر واليابس فالنوتي، رحلة في الذاكرة، لحظة صفاء وهو يتساءل هل العودة إلى الذات متاحة؟ يقول:

" ذات صباح في الباخرة تراتشتي فوق بحر الخليج المالح تحرك شيء لا يريد الضعف ولا الانكسار يفكر في السلطة وعاطفته تتقد حازماً خجولاً، جمع الهشاشة والقوة معاً، وعلى

سبيل التغيير كنت ميالاً لذاتي، جربت الآخر فيها واستعنت بمكنونها واستمعت إلى قولها وشاركت أفكارها، النوتي "[١٨].

فبعد أن وجد نفسه محاصراً من واقع ضبابي حزين، حاول العودة إلى ذاته، "قد يضطر المرء في الحياة وغيرها على تجاهل الحاضر في استحضار الماضي وتطويره خيالاً ليبعد عن الواقع مساحة وفقاً لما يراه من الداخل على أنه الأمل في عودة الآخر"[١٩].

تأسيساً على ما سبق نلحظ أنَّ النص الموازي المتمثل ب العنونة، والمقطع الافتتاحي، والمقدمة، قد كشفت لنا عن المتن الروائي، ووضَّح أن أدب الرحلة كشف للذات، وفهم للآخر، وانفتاح عليه[٢٠].

إذ مثّل النص الموازي جماع تفاعل وعي الراوي مع الشروط التاريخية وأسئلة ذاته، المنقسمة داخل مجتمع يمور بالفوارق والصراعات والاستلابات، إذ لحظنا تذويب النص الإبداعي في النص الموازي ففيه نصغي إلى صوت الراوي الذي بقى لزمن مستلباً ومخنوقاً ومصادراً في خطابات مؤدلجة وشعارات فاشية متخشبة.

فالنُّوتي، عمل سردي يعالج بالأساس صراعاً مريراً بين الأنا ونصفها الآخر، ذلك الآخر الذي يحرك الحدث على وفق ما يشتهي والآخر المعارض وما بينهما عالم يزخر بالمتناقضات، فهي رحلة الهروب من الذات " أليست الرحلة ضرباً من الهروب من الذات " تلك الذات المتشظية التي تعبت تبحث عن حياة أكثر أمناً وأماناً وسلامة، لِما شهده هذا القَرْن من حروب وكوارث إنسانية، واهتزاز للقيم الاجتماعية.

فالنوتي، شخصية مأزومة مصابة بالإحباط قريبة من اليأس، تطغى على لغته التذمر والقلق والسوداوية فنراه غير متوافق مع بيئاتهم الاجتماعية، وقد بقيت الشخصية العراقية تحديداً مغتربة عن ذاتها، لا تجرؤ عل الإفصاح عن مكنوناتها وصراعاتها وأزماتها، تتوارى خلف رموز مستعارة أحياناً خوفاً من أن نكشف عن هويتها الحقيقية. فعالجت الرواية، مسألة الوعي بالذات التي لا تنهض إلاّ عبر الاحتكاك مع الآخر، لأن الإنسان لا يكتشف نفسه وهويته إلاّ عندما يقف أمام شخص مختلف.

صراع الإنسان مع ذاته في زمن التناقضات والقهر والاستبداد في رحلة البحث عن الحرية والأمان، فالأنا ولدت ضعيفة متنكرة، استمدت قوتها من الآخر.

**ثانياً: النصُّ الإبداعي وتقابلاته**

النوتي، عمل سردي صيغت في قالب أدب الرحلات، اعتمدت إستراتيجية محكمة إذ حاول الراوي تمرير حقبة تاريخية عصيبة مرَّ بها العراق في تاريخه المعاصر متتبع الفصول القاسية وانعكاساتها على الإنسان العراقي، وهي تعالج في الأساس صراعاً مريراً بين الأنا وذاتها المتمثل بـــ(الآخر) المغاير الآخر المسكون فينا، الآخر الذي يحرك الحدث على وفق ما يشتهي ويرغب، وما بين الأنا/الآخر عالم يزخر بالمتناقضات.

وقد قامت (النوتي) على ثيمة السفر، والتنقل بين الدول والموانئ البحرية، وهي تروي صراع الإنسان مع ذاته المتشظية المتمردة بفعل الأزمات التي عاشتها " ذات صباح في الباخرة تراتشي فوق بحر الخليج المالح تحرك شيء لا يريد الضعف ولا الانكسار يفكر في السلطة وعاطفته تتقد حازماً خجولاً، جمع الهشاشة والقوة معاً، وعلى سبيل التغيير كنت ميالاً لذاتي، جربت الآخر فيها واستعنت بمكنونها واستمعت إلى قولها وشاركت أفكارها "[٢١] إذ أراد الراوي أن يناقش مسألة الوعي بالذات والذي لا يتأتى إلاّ عبر الاحتكاك مع الآخر، لأن الإنسان لا يكتشف نفسه وهويته إلاّ عندما يقف أمام شخص مختلف، إذ يمكن القول أن النوتي رحلة فكرية جمعت بين الواقع والخيال تسعى إلى الاندماج في الحياة عن طريق البحث عن أسباب الحياة، وهي لم تبنى من فراغ، وإنما استندت إلى ذخيرة ثقافية وتأريخية ولغوية، فكانت سعياً حقيقياً وراء المعرفة والاكتشاف كما أصبحت انغماساً كاملاً عبر الزمان والمكان منطلقة من رغبة حقيقية لدى السارد، في الإصلاح الذي ينبع من الذات أولاً لا من الآخر. وحتى نستطيع سبر أغوار النوتي، لا بُدَّ من وقفة أمام أهم تقابلات النص الإبداعي، وهي على النحو الآتي:

- الآخر/أنا
- تهميش السياسة/ مركزية الثقافة
- المسكوت عنه/ المُعلن عنه.

**أولاً: الآخر/أنا**

إن تداول العلاقة بين الآخر/أنا في رواية النوتي يقودنا إلى الحديث عن تلك الثنائية التي قامت عليها كتب الرحالة وهي ثنائية (الأنا/الآخر)، التي تضرب بجذورها في صميم الوجود الإنساني، فالإنسان في أصل خلقه وفي حقيقته لا يعرف سوى ذاته، فتصبح هي مركز الوجود،

ومحور كل حقيقة، ومصدر كل معرفة، بالنسبة إليه، على الرغم من إيمانه بوجود ذوات أخرى مشابهة، إلاّ أنّه ينظر إليها بوصفها ظلالاً[٢٢].

وكان ادوارد سعيد هو أول من أطلق شرارة الأنا/الآخر في كتابه الاستشراق الصادر عام ١٩٧٨م، وما قصده منها، هو الأنا الغربية في مواجهة الأنا الشرقية، وما الاستشراق سوى رؤية الشرق من خلال الغرب، على الرغم من أن هذه الثنائية تنتمي في الأساس إلى الفكر الأوروبي، وهي قائمة على ثنائية الإنسان الطبيعة، فالإنسان مركز الكون وفي حقيقته، أنّه عقل أو صورة في مقابل الطبيعة أو المادة.

والأنا لا يفهم إلاّ بوصفه سلباً أو نفياً للآخر[٢٣] من خلال هذا التصور لـــ(الأنا)، كمبدأ للسيطرة يتحدد موقع الآخر، ودلالته ووظيفته في الفكر الأوروبي، أي بوصفه موضوعاً للسيطرة أو عدواً أو بوصفه قنطرة تتعرف الذات من خلاله على نفسها، يقول سارتر" أنا في حاجة إلى توسط الآخر لأكون ما أنا عليه "[٢٤].

هذه الثنائية في رواية النوتي جاءت مغايرة ومختلفة، إذ حاول السارد، الابتعاد عن تلك الثنائية الخالدة التي بقيت متحكمة في كتب الرحالة من المسلمين والأجانب، فأوجد بديلاً لها، من خلال ثنائية الآخر/أنا، فإذا كانت الأولى قائمة على أساس الصراع الحضاري بين الشرق (العربي الإسلامي) و(الغرب الأوروبي)، فإن ثنائية النوتي، قد قامت على أساس الصراع بين الذات ونصفها الآخر " من المؤكد رغبتي في التحرر منك – نصفي الآخر بدأت تتسع "[٢٥].

وقد أقامها السارد على حقيقة وضحها سارتر من قبل، وهي أن الفرد نادراً ما يكون وحيداً في العالم، فهو يواجه باستمرار وجود الآخرين أجساماً أو أذهاناً[٢٦].

فبطل النوتي، شخصية إشكالية حاول في رحلته هذه الهروب من ذاته ومن مكانه ومن زمانه، أو بالأحرى الهروب من هويته، واللجوء إلى البحر فهو عنده الملاذ الآمن يقول: "يقودني البحر إلى تحقيق البراءة من تهم الأرض الموجهة لي، تهمٌ أعجب منها مني، وأغرب من نوباتي المتكررة، خاصة بعدما بدأت أسمع صوتك وأراك وسط الناس تحدثني "[٢٧].

معترفاً أن جسده مشطور إلى نصفين: نصف يملكه والآخر لا " لأنه في رأسي يظهر ويختفي متى شاء "[٢٨].

الآخر هذا له من الصفات والخصائص ما يجعله أقرب إلى الوهم " وكأنه من عالم آخر فجاً لا يكترث أبداً إلى احترام النفس ولا الكياسة، يتكلم بصوت مرتفع غالباً، وأوقات قليلة يهمس لي همساً، أراه عارياً تماماً وأخرى يلبس أفخر الملابس وينتعل أجمل (الجزم) يتحلى بأثمن الجواهر، يحيرني ارتداؤه ملابس الشتاء صيفاً، والعكس، أحسبه أطول مني وأحياناً أقصر، يظهر مثل الأشباح وأخرى ينتحل هيأتي هذه التي أراها أمامي في المرآة، ليس هذا فقط، لا يحترم خصوصيتي، ومن غير مبرر يقاطعني أثناء الحديث، يتحرك بطريقة قلقة، يعذب نفسه ويعذبني، بين الناس يفعل بي ما يشاء، حيوياً متأهباً طول اليوم، يستفزني بكلمات يغرقني لا أحب سماعها، يكرر ذكريات يعتصر قلبي عودتها "[٢٩].

فالعلاقة بين الأنا والآخر، هي علاقة تغاير وتضاد هي علاقة حاكم بمحكوم، ربما تأزم هذه العلاقة بين الذات ونصفها الآخر، يقودنا إلى الحديث عن الهوية الممزقة، بفعل تاريخ أسود قتل فينا الأمل في حياة أفضل " لقد مضى زمن طويل ونحن نعيش وسط الغبار، قدر لنا العيش في لغز: ننتمي أو لا ننتمي، هناك معاناة حقيقية، أيام الخوف والقهر في الذهن لا ترحل "[٣٠].

في هذا الصدد يذكر بول ريكور: " إن الهوية بما هي نتاج تاريخ، ومكون له منحوته كما لو كانت ذاتها والآخر، الذي يمثل أمامها، فالذات ومنذ الأمد مسكونة بالغيرية، والذات عينها هي الآخر "[٣١].

فقد عاش البحار أجواء الاثنين معاً، أنا والباحث عنه نصفه الآخر، وفي رأسه التعارض الذي يشكل الأفكار، ذلك أن في حياة كلّ منا، وفي داخل كلّ منا، شخص آخر، يقيد ويقود، يزرع الأمل فينا أو اليأس، نتجاهله في بعض الأحيان، وأحايين أخرى نصغي إليه بلهفة.

فالأنا هنا، دائماً ما تحاول أن تجعل من نفسها مركزاً، وتحاول تهميش الآخر، وهي تحاول استعباده، وقد انمازت بالتمرد والطغيان ومحاولة التخلص من الآخر " لقد هرمتْ آراؤه وأصبح غير جدير بالثقة وعليه أن يتركني إلى الأبد "[٣٢].

ويعلن "سأذكر لذة الانتصار على الآخر"[٣٣] فالأنا في النوتي، قامت على مبدأ السيطرة، سيطرتها على الآخر، فهي ترفض الامتثال أو الخضوع له مهما كان، شيطاناً أم ملاكاً، يقول: " ليس من حق أيّ كان أن يجردني من إنسانيتي ويلبسني ثياب الملائكة أو الشيطان، رغباته في إصلاحي لا جدوى منها، يذكرني بحقيقة وجودي ولا يدري أو لا يريد أن يدري صرت أعلم

حقيقتي جيداً ولا أبالغ لو قلت لم يصل بعد هو أو غيره، كما وصلت أنا إلى معرفة أن ما بين محاجر العيون موت مأمور أعمى لا يجرؤ على عزل الفضيلة عن الرذيلة "[٣٤].

فالآخر المسكون في ذات البطل، يتشكل بعدد من الأشياء، الأمر الذي جعل الأنا تتشكك في كل شيء حولها. فقد تكون الأشياء المادية المحسوسة حوله أو يكون الشيطان الذي يضله، أو الله الذي اطمأن البطل إليه.

ومن ثم، فهو يرفض الاستسلام أو الخضوع لتلك الأنا المتحكمة، ذلك أن "أهمية الحياة تتجلى في احترام حدود الآخر على أن يكون إنساناً لا أكثر، لا للقتل لا للتفكير في قتل الأمل في ذاتك، وإذا ما صدمتك خدعة من أقرب الناس إليك لا تحتار ربما كانت تمثل له رمزاً للأمل أو عابر سبيل، فقط عليك أن تتقدم، ولسوف تجد من يساند حلمك"[٣٥].

تأسيساً على ما سبق، نلحظ أن رحلة النوتي، كانت رحلة البحث عن الذات، تلك الذات المتشظية المنقسمة المزدوجة التي تحكمها الأزمات والصراعات والمتناقضات، والتي عكست نفسية الإنسان في المجتمع المؤدلج، المجتمع الذي لا يعرف سوى الحروب والفقد، ونستطيع القول: أن رحلة البطل في النوتي كانت انتصاراً للذات والإصرار على عدم التنازل عن حقوقها في حياة حرة كريمة.

**تهميش السياسة، مركزية الثقافة:**

استطاع الروائي حسن البحار، تمرير حقبة تاريخية عصيبة مرَّ بها بلده العراق في تاريخه المعاصر، في قالب أدب الرحلات، إذ لم يحاول تجريف الماضي أو القفز فوقه لإحياء الحاضر، إنما ربط الفصول المريرة التي مرت على وطنه ولم ينتج عنها سوى الخراب، الخراب المادي والمعنوي، فتبنى عدداً من القضايا السياسية المهمة التي عصفت بواقع الحياة في العراق بدءاً من مرحلة الحكم الأوحد المتمثلة بمرحلة حكم حزب البعث، وانتهاءً بمرحلة ما يسمى بالدولة الإسلامية (داعش) والخراب الذي جاءت به، متخذاً من منجزه هذا معرضاً لبث أفكاره ورؤاه تجاه الواقع، ولذا يمكن أن تصنف هذه الرواية ضمن خانة الرواية السياسية أيضاً، لأنها رواية احتجاج ونقد ومعارضة في الوقت نفسه، وهي " رواية ضد السلطة أياً كان شكلها، وهي رواية تحرر شامل مادتها معاناة لموضوعات السلطة والوطن والانتماء السياسي"[٣٦]، وكأني به يلبي دعوة عبد الرحمن منيف عندما قال: " نحن أحوج ما يكون لتشكيل عصابة من

مائة كاتب عربي ليكتبوا عن القمع فقط، وسنشعر دائماً بأننا بحاجة إلى أعضاء جدد "[٣٧]، فالنوتي رواية عالجت عدداً من القضايا التي عانى منها الفرد العراقي، تحديداً من ظلم واستبداد وقهر وتهميش، وتبعات ذلك على مستقبل الأجيال يقول: " طفولة تيتمت ولا تجد سبباً لتفسير تصرفها، بطريقة غير اعتيادية تشعر أنك تمر من أمام براعم كان يمكن لها أن تنمو ولتكبر تحت شجر الحياة تعطي ثمارها يوماً كان يبدو قريباً، لكنك ترى الحزن منقوشاً على أديمها"[٣٨].

وربما كانت شخصية البطل الإشكالية في الرواية هي إحدى تبعات تلكم الأنظمة.

وهو يسمي أرض العراق بأرض المنعزلين، ويصفها بقوله: " أرض هادئة، مزدحمة بالناس ترى في وجوههم اللطف والوداعة وتتعاطف أرواحهم مع الزائر في رقة واحترام يكلّم بعضهم بعضاً "[٣٩].

لكنَّ سياسات الحكام الرعناء، جعلتها أرض خراب، وممكن تتبع الفصول المريرة مع قلم السارد على النحو الآتي:

١- مرحلة حكم الحزب الأوحد: " نظام يمتهن القتل ولا يفرق بين الإنسان والحيوان إلاّ بالانتساب للحزب الأوحد، يمارس الاستعلاء على الناس وإذلالهم عن قصد كان يهدر كرامتهم "[٤٠]، وهو يصف فترة حكم الرئيس صدام حسين: " بطل قومي يجيد فنون الهدم، عنجهية عسكرية تقطف الرؤوس وتمسح القرى، دمّر كل شيء فينا، أحلامنا المتواضعة التي كنّا نخاف عليها من النسيان حولها على رماد، إنه القائد العام للقوات المسلحة رأى في شعب برمته ثماراً يانعة تحين قطافها في المنافي والسجون والمشانق والمحارق، رسم لنا طريق الموت مثل غاز لا يعرف الرحمة، حكم البلاد بأنواع لا تنتهي من فنون القتل والقتال، ولم يغادر حتى سلط بشططه تتار العصر علينا وما زال العدل لم يعرف طريقه إلينا "[٤١].

بهذه الرؤية يختزل تاريخ العراق، وإن كنا لحظنا بعض المبالغة عند السارد والتطرف عندما يصف مثلاً عدم قبوله في أكاديمية الطيران، وتحوله إلى الأكاديمية البحرية ، بسبب اسمه ومسقط رأسه في مدينة تنتمي إلى مجال جغرافي مغضوب عليها، كانت ترفض الظلم والاستبداد، وهو يقصد إحدى المدن الجنوبية، وإن كان وصفه هذا لا يخلو من الحقيقة النسبية وليست المطلقة، فهنالك عدد كبير جداً من الطيارين تخرجوا في ذلك الوقت يحملون مثل تلك

الأسماء وينتمون إلى تلك المدن الجنوبية، فالأمر نسبي وليس مطلقاً، وهذا مؤشر يحسب على رواية النُّوتي.

٢- مرحلة حرب الخليج، وهو يعكس وجهة نظره وانعكاسات تلك الحرب على الشارع العراقي، يقول: "بدأت حرب الخليج وصار ترك البحر والتوجه إلى الحرب أكبر مخاوفي، لم أكن مقتنعاً ولا أتصورني جندياً يقاتل في معركة أو جبهة يخلقها متكبر حسب أهوائه الخاصة، أو جاءت خدعة من دولٍ كبرى، دول لها خطط استعمارية"(٤٢).

وهو يروي مأساة الوطن " تفاقمت أمور المعيشة وصار ما يتقاضاه الموظف لا يعادل خمسة دولارات في الشهر، رقم لا يساوي ثمن كيلوغرام واحد من الدقيق"(٤٣).

وقد مرت مرحلة التسعينيات صعبة منهكة، بدأت آثارها على وجوه الفقراء إذ يروي " في بلدي باع الناس أثاث بيوتهم حتى الأغطية والملابس كانت تعرض على الأرصفة يومياً، كنت أرى الفقر ينخر حياتنا "(٤٤).

وانعكس حال البلد هذا حتى على العادات والتقاليد التي تغيرت انحرف الصدق عن مساره وصار الأمل في الخلاص، كانت الحياة حقيرة ضيقة خانقة في زمن بدأت فيه موازين الأرض غير مؤتمنة.

٣- مرحلة الحصار، وفيها تحول الوطن إلى سجن كبير، حيث فرض الحصار على البلد، أقصد هنا – على الشعب – على حد تعبير الراوي، حصاراً قاهراً جداً تسلط على أفواه البسطاء، مؤلماً لبطون الطبقة العاملة ومتعباً جداً لعقول الطلبة، مميتاً لجينات التفكير لدى العلماء والمفكرين، كان الحصار موجهاً لتجويع الشعب وإذلاله، وهو ما أسماه بـــ (الفوضى الخلاقة)(٤٥).

٤- مرحلة الاحتلال الأمريكي، عندما دخل الاحتلال الأمريكي إلى قلب بغداد لإزالة نظام دموي قتل وشرد وبطش على مدى ثلاثين عاماً وأكثر، وسقط الصنم " إنه حدث اجتث ورماً داخلياً بنصل مسموم، شعور بالتوجس من الغزاة الجدد: مغول العصر الحديث: فلم تكن ممارساتهم المذلة ومناوشاتهم الوحشية إلاّ علامة من علامات اكتمال حقبة مظلمة من تاريخنا المعاصر"(٤٦).

٥- مرحلة خروج الأمريكيين بعدما تركوا بغداد خراباً، وباقي المحافظات تلملم جراحها، إنها مرحلة الحرب الطائفية " ضج البلد بالقتل والسرقة والهدم والدمار، وتعثرت العملية السياسية، سارت سفينة البلد وهل تجري سفينة على اليبس؟ "[٤٧].

في أجواء الفوضى غير الخلاقة تلك، حدث تبييت المكائد من الداخل والخارج، وما زال التخطيط سارياً مع انفراجات عقلانية بين الفينة والأخرى.

٦- مرحلة داعش، يقول الروائي " العراق يصارع على البقاء ضد (داعش) جاءوا من كل أرجاء الأرض يحملون الأحزمة الناسفة بفتوى مشايخ التطرف فخخوا المتخلفين عقلياً وفجروا المساجد والكنائس وأماكن العبادات وقتلوا الأطفال واغتصبوا النساء وقطعوا رقاب الشباب "[٤٨].

ويستمر الراوي بسرد تلكم الأحداث والفصول المريرة السوداء في تاريخ العراق المعاصر ليتحول إلى " المؤرخ الحقيقي " على حد تعبير الدكتور طه وادي، لكثير من أحداث المجتمع العراقي وقضاياه المصيرية.

ويحاول البحار البحث عن فسحة أمل تعيد للحياة توازنها وتخرجنا من تلك الأزمات التي انعكست على النفوس، وقضت على سبل التفكير، يقول: " مضت السنون وما زلنا بمكاننا ندور وندور حتى تعبنا ولا نعرف للتقدم سبيلاً؟ شيء فينا قد تبدل "[٤٩].

ويطرح عدداً من التساؤلات الوجودية، هل في مقدوري أن أتنفس الهواء النظيف في زمن القذارة وأبحث عن الضياء في زمن الظلمة؟ "[٥٠].

- " لماذا تغدر بنا الحياة؟
- كيف يتحمل الإنسان هذا الفعل؟
- هل سيعود السرور كما كان؟ وذاك الجهل؟
- أي طريق يصل بك على بر الأمان؟

وربما كان لتلك الفصول المريرة، وتلكم السياسات القذرة أثر في تحول التفكير إلى مرحلة نجد فيها الأمان المفقود وهي على وفق تفكير – البحار – الثقافة، متمثلة بالقراءة بجعلها المركزية في التفكير، وتهميش السياسة، مؤمناً بأن التفتت السياسي قد يدفع إلى نهضة في الإبداع الثقافي، فكانت فكرة إقامة مكتبة بحرية على ظهر الباخرة تراتشي اللبنة الأولى للنهوض

بمشروعه الثقافي، " إن تفتح مكتبة في الباخرة شيء يمكن له أن يكون الحدث الأكثر أهمية وتفرداً، ولكن الحفاظ عليها هو الأصعب ".

وبهذه الفكرة ينتصر البحار للثقافة والمثقف؛ لأن خطاب المثقف عادة ما يكون متميزاً عن خطاب السياسي على نحو ما يرى ادوارد سعيد، لأن " السياسي يخاطب الآتي والعارض بخطاب متلون، أما المثقف فيرحل نحو الدائم الأبدي والجوهري والعرضي "[٥١].

وأول الخطوات لصناعة ذلك المثقف هي القراءة، لأن الثقافة من صنع الإنسان، وبه تنمو وتكبر، ومن ثم تستطيع إعادة تشكيل ذاكرة تمنحها الاستمرارية مختلف قطاعات المعرفة، بدل أن شكلتها السياسة من كل أشكال الخراب والتدمير، فإدمان القراءة والكتابة حيوات مختلفة عن الواقع، نابعة الدهشة متجددة الانبهار مقنعة، ولاسيما أكثر العراقيين كثير الاهتمام بالقراءة حيث يجد المرء فيها سلم النجاة ويبتعد فيه تدريجياً عن الانغماس في وحل الجهل والرياء[٥٢].

وهو يرى أن القراءة لها قدرة كونية على جعل الإنسان يعيش أكثر من حياة، جسرها السفر بين الكلمات ووسيلتها الذاكرة، وهي لباقة ذهنية نستطيع منها أن نستكمل المتعة والفائدة من الوقت بطريقة سلسة، فالكتاب بحر إذا جف جفت الحياة وتصحرت.

ومن ثم يدعو إلى أن نجعل من الماضي المرير " قوة فعل تحرك الحاضر في اتجاه المستقبل "[٥٣].

وقد نظر البحار إلى الثقافة متمثلة بالقراءة من زوايا ثلاث:

- الأولى: إن الثقافة هي تعادل حياة الإنسان الاجتماعية، فحيث يكون الإنسان تكون له ثقافة، أي أن الإنسان مهما كان معتقده وعرفه ولغته لا يعيش من دون ثقافة.
- الثانية: إن الثقافة مكتسبة من واقعه الذي يعيش فيه الإنسان وليست وراثة، فالمجتمع هو الذي يحدد المهمة الثقافية لأفراده.
- الثالثة: إن الثقافة ذات بعد اجتماعي، وليست حالة فردية، فكل مظاهر الثقافة من لغة ومعارف وآداب وعادات وتقاليد وفن هي نشاط اجتماعي يستلزم وجود جماعة بشرية.

وهذا ما كشفته الحوار مع البحارة بمختلف درجاتهم الوظيفية عندما سمعوا عنوان تلكم المكتبة البحرية المقترح إقامتها والتي أطلق عليها اسم (النوتي)، هذا اللقب الغريب وما يخلقه

من دهشة، إذ كشف هؤلاء البحارة عن أبعاد كانت غائبة عن إدراك البحار، حتى أبسطهم عملاً، المتمثل بشخصية (أبو النون) فهم مغزى هذا اللقب، وسمعته يقول بنبرة رصينة: ما أحلاه(٥٤).

وهو يروي ردود افعالهم غير المتوقعة يقول: " تكلم الآخرون عن أثر القراءة في مراحل مفصلية من حياتهم وما أدهشني أكثر قد طلبوا مني الروايات الرومانسية والقصص البوليسية والاجتماعية وهناك من قال أريد الكتب الدينية، بعضهم كان يرغب قراءة الفلسفة، وآخرون تركوا الخيارات لذائقتي "(٥٥).

وفي هذا تأكيد على أن الثقافة ليست للنخبة فقط، أو بالأحرى لا يوجد نخبة وإنما بعض التفاوت بين مثقف وآخر في مستوى الفهم لما يجري من حولنا وأن هذا الفهم والإدراك، يأتي من ثقافتنا الذاتية ويتشكل مع مرور الوقت من ثقافات مكتسبة.

وبهذا، فالنوتي، غيّر طرائق التفكير وحوّل مساره من التسليم والرضوخ لتلك السياسات التي أودت بالبلاد والعباد إلى مرحلة أخرى، تتمثل في النهوض الثقافي الذي تكون أولى خطاه هي القراءة، فالأنا تنهض عندما تتغير علاقة السلطة بالمعرفة.

**ثالثاً: المسكوت عنه/المعلن عنه**

- المسكوت عنه: مصطلح نقدي حديث، شاع في الدراسات الروائية الغربية بشكل عام، يشير إلى تلك الرسالة الملغزة المكتومة سواء أكانت كلامية أم حكائية أم تشكيلية تخص شيئاً يمكث في منطقة معينة بالنص، حيث يحرسه الصمت والغياب والحجاب لأسباب يحكمها ظرف مانع لا يمكن اختراقه أو تجاوزه، وقد أجمع النقد الروائي بتوجهاته المختلفة على أن عملية الإنتاج الروائي، إنتاج المعنى حصراً، تستصحب أبداً بالاختيار والانتقاء والإمضاء. فالكاتب الذي يستعمل دليلاً siqhe يتجاهل آخر ويقصيه. ومن ثمَّ يمكن العثور في كلّ نص روائي على لا شعور مجتمعي(٥٦).

وقد صيغ هذا المصطلح بمسميات عديدة، من قبيل، لا شعور النص، والحذف والإضمار، والبياض، والمسكوت عنه، واللامفكر فيه، ومكبوت الخطاب، وما بين السطور.. وغيرها، غير أن اختلاف هذه الصيغ لا يحجب القاسم المشترك بينها، وهو الشيء المتواري خلف السطح الظاهري للخطاب، وهو باسط تعريفاته تعني " قراءة ما يضمر عبر ما يظهر"(٥٧).

وقد تكون أسباب الإضمار ذاتية أو موضوعية أو جمالية، الأمر الذي يدفع إلى التمويه والإخفاء والعزل والإشارة، وفي هذا الصدد ميَّز تودوروف في هذا المجال بين نوعين أساسيين من العلاقات التي تحكم الخطابات، وهي علاقات الحضور (المُعْلَن عنه) وعلاقات الغياب (المَسكوت عنه).

وهو يرى أن ثمة عناصر غائبة من النص، وهي على قدر كبير من الحضور في الذاكرة الجمالية لقراء عمر معين، لدرجة أننا نجد أنفسنا عملياً بإزاء علاقات حضورية، على العكس من ذلك يمكن أن نجد في كتاب على قدر كبير من الطول أجزاء متباعدة، مما يجعل العلاقة بينهما علاقة غيابية(٥٨).

ومما لا شك فيه أن النص الروائي، هو نص مشحون برسائل مشفرة فهو يعمل بمثابة جهاز إرسال سردي متواصل، فهو ليس نصاً مغلقاً أو قرائياً بتعبير رولان بارت(٥٩)، إذ يتحول المتلقي فيه إلى جهاز استقبال فعال قادر على تلقي الرسالة وإعادة فك شفراتها وتأويلها وصولاً إلى إنتاج دلالة النص المحتملة على وفق سياقات ثقافية وزمنية معينة.

وهذا ما يقودنا إلى محاولة البحث عن المستويات المقموعة أو المسكوت عنها في رواية النوتي.

وقد أشرت إلى أن عملية الإعفاء والإضمار التي يلجأ الروائي أو الكاتب إليها تقبع وراءها أسباباً عديدة، وترجع إلى عدد من الضغوطات التي تتحكم في حرية الكاتب، قد تكون خارجية أو داخلية، بحيث تجعله تحت رحمة سلطات قامعة وكابتة زمنية أو روحية أو سياسية أو جمالية تمارس هذه السلطات ضغطاً معلناً أو مبطناً، الأمر الذي يجعل المبدع يضطر إلى التراجع والمراوغة أو حذف بعض الفضاءات الحساسة كما يلجأ أحياناً إلى عمليات حذف جمالي لتجنب المباشرة والتصريح وتغييب الأنساق والبنى السردية والثيمات حيث تكون فيه " أشكال الوعي لدى هذه الطبقة وكل عمل أدبي بالتالي يجسد ويبلور رؤيا العالم لدى هذه الطبقة ويجعلها تنتقل من الوعي العقلي القائم الذي بلغته إلى الوعي الممكن "(٦٠).

في رواية النوتي حاول البحار تغييب عدداً من القضايا الأيديولوجية بمهارة عالية وذكاء متقن تكاد يتحقق فيها عملية إمحاء وإقصاء للمنظور الأيديولوجي، وقد أشار بيير ماشيري إلى مسألة ارتباط العمل الأدبي بالأيديولوجية فقال: " إن العمل الأدبي لا يرتبط بالأيديولوجية عن

طريق ما يقوله، بل عبر ما لا يقوله، فنحن من خلال جوانبه الصامتة الدالة التي نشعر بها في فجوات النص وأبعاده الغائبة هذه الجوانب الصامتة هي التي يجب أن يتوقف عندها الناقد ليجعلها تتكلم "[٦١].

ففي النوتي نجد محاولات الراوي (البحار) للهروب من مواجهة عوامل القهر والقمع في الواقع الخارجي، ويتم ذلك في الأكثر عن طريق محاولة الهروب من الذات المتشظية المأزومة بفعل ما عانته من الاضطهادات والاخفاقات والكوابح السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية والفكرية " من المؤكد رغبتي في التحرر منك – نصفي الآخر – بدأت تتسع "[٦٢]، محاولاً البحث عن الحرية والأمان بوصفهما قضية كبرى وهماً جماعياً، ليدخل في فضاء تاريخي واقعي، يشتبك بصورة فاضحة بواقع سياسي واجتماعي دموي، وعلى الرغم من محاولة الروائي التمويه على الكثير من مستويات الواقع الموضوعي، وكذلك التمويه على المنظور الأيديولوجي للرواية إلاّ أن الفضاء الروائي يفضح ساسلة من الكوابيس السياسية والثقافية التي أدت إلى اتّساع رقعة المَسكوت عنه في هذه الرواية، وأدَّت إلى خروج القارئ من النص، إلى عناصر السياق الاجتماعي والسياسي والتاريخي لاكتناه المغيب والمطموس تحت ركام التمويه.

وتكشف رواية النوتي عن عدد من مظاهر (الفوبيا) السيكولوجية التي تعاني منها البلدان العربية، التي تتستر تحت غطاء الدين يقول: " سمعت من مقدم الأخبار دولة عربية فيها ولاية تكثر بها المساجد وأطفالها تموت في العراء وشيوخ جياع ونساء تغتصب وشباب قطعت أجسادهم إلى أشلاء رفضوا البيعة للوالي الجديد "[٦٣].

وفي هذا النص نلمس ازدراءً واضحاً لما يدعيه بعض العرب المسلمين من العفة والفضيلة مقارنة بالغرب المنحل، وقد عرض الروائي عدداً من المشاهد السالبة لكرامة الإنسانية ومن تلك المشاهد في سبيل المثال، عندما حطَّ رحالة في الإسكندرية، ولحظ رخص النساء وهن يُمارسْنَ مهنة البغاء، مقابل مبالغ مالية زهيدة، تحت علم ودراية بواب العمارة الذي يدّعي العفة والشرف وهو – القواد – الذي يسهل أمر تلك الممارسات الجماعية، وهن عادة يَعْمَلنَ مكرهات تحت ضغوطات الحياة وفقرها، إذ تعترض إحداهن قائلة له: تجمعوننا كالقطيع لإرواء شهواتكم "[٦٤].

وفي هذا الكلام صرخة تمرد ورفض لواقع مرير فرض عليها مثل هذا العمل.

ونفس المعنى نجده، عندما توجه إلى ميناء بندر إمام في إيران، ونزل في إحدى مدن الميناء، مدينة (سربندر) " وهي مدينة هادئة وقد قسمت أهلها إلى شطرين عربستاني وأقلية إيراني، كلٌّ شطر له أسواقه وشوارعه... "[٦٥] وتعرف هناك على أحد العمال، يعمل على ظهر الباخرة، فدار الحوار بينهما عندما سأله[٦٦]:

– ما أحوال النساء عندكم؟

– فاجأني بسؤاله! فقلتُ

– ماذا؟!!

هنا القانون يحترم المرأة أكثر من الرجل.

– هذه صفة الدول المتقدمة.

ضحك وهو ينظر في فنجان قهوته بعدها ارتشف منها رويداً رويداً.

قال وهو يضحك:

– متقدمة جداً.

ويبدو إن الكشف عن المغيب عنه هنا يتطلب نبشاً في السجلات الاجتماعية والثقافية والسياسية في تلك الدول، إذ نلحظ الكثير من الفراغات البيضاء وراءها حول دور المؤسسة الروحية والدينية في ذلك والدور الذي تلعبه تلك المؤسسات، لقد تولد لدينا إحساس بأن ما يحدث في تلك الدول هو بمثابة وعي جمعي وتاريخي.

في كل ذلك يترك الراوي فضاءات بيض وممحاة أو مغيبة تحفز شهية القارئ على الاشتغال الفعال الديناميكي لإعادة استكمال النص وإنتاجه وتأويله.

ومن القضايا المُغيبة المهمة التي تعرض لها البحار هي قضية الأعراف والتقاليد التي تربينا عليها، فقد تربينا على أن الغرب لا أخلاق لهم، فقد عرفوا بانحلال النساء ومن الخطأ تربية الأطفال عندهم " لا أؤمن بأخلاقيات الغرب كما لا أرى صلاحاً في تربية الأطفال عندهم، الذنب ليس ذنبي هو ذنب من تربيت معهم جذروا في مفهومياتي إنما الأخلاق ما بقيت... والأخلاق يقصدون بها أخلاق الشرق "[٦٧].

هذا المفهوم الذي تجذر في عقله الباطن انعكس على حياته فيما بعد فحبيبته تلك السمراء الفرنسية المطيعة اللّينة الناعمة المُحبة، كان يشك فيها وفي طاعتها مستقبلاً على الرغم من

الحب العظيم الذي يكّنه لها، إلاّ أن قرار الفراق لم يكن بيده، فقد كان شرقياً " ولكن يد الأقدار أو شرقيتي التيأحب تقاليدها وعاداتها أبعدتني رغماً عني وعن طموحها الغربي "[٦٨] والندم يأكل قلبه كل يومٍ عليها، يقول: " ومما زاد القلب احتراقاً إحساسي بانخفاض مستوى الحب عندها مما تسبب في مشاعر تصدعت ولا يمكن لها أن تصلح، بعد فوات الأوان عرفت فيها وفاءً أربك حسابات قلبي "[٦٩].

فالحكم المعادي للغرب هذا كان نتيجة لما تسرّب إلى مشاهدات سلّطة الأعراف والتقاليد من سينما الغرب وقراءة بعض المجلات وأحاديث تشبه الخرافات عن الآخر، وإن صدق بعضها، إلاّ أنها تبقى أحكاماً سطحية بسيطة لا تصمد أمام العقل الذي حقق المعجزات في غرب مؤسس على كثير من الأخلاق والقيم الإنسانية.

ومن القضايا الأخرى المُغيبة التي حاول البحار الوقوف عندها قضية الأمن والسلام " لن تنعموا بالسلام السعيد الوديع أبداً، إلاّ إذا أبعدتم همومكم عن مغريات الشهوة والخيانة والكيد والغدر "[٧٠].

هذا هو قانون الحياة وهذا دستوره الذي خطه، ويضرب مثالاً على ما تركه نظام الحزب الواحد، تلك القصور التي بنيت من دماء الشعب أصبحت خاوية لا تزهر من حولها الحياة إلاّ النباتات الوحشية على الجدران الاسمنتية، عند منحدرات الفرات وانعطافات دجلة تراها، لم يتحدث عن تاريخها أحد، نسيت كنسيان قاطنيها الملك والأمراء والبلاط والحاشية والقائد والوزير والمتصرف والعسس والرعية والأميرات والخدم، لم يترك آثارها إلاّ في نفوس ضحاياه وقد كان أحد تلك الضحايا " كنت وحدي فوق أشلائي أبحث عني "[٧١].

ويمكن أن نلحظ في رواية النوتي كثيراً من المظاهر العصابية، ومظاهر غياب الوعي أو تهميش العقل " كيف يتحمل الإنسان هذا العقل وذاك الجهل "[٧٢]، فضلاً عن مظاهر الكبت والإحباط أو الكوابيس وأحلام اليقظة ومختلف أشكال الفوبيا الاجتماعية والنفسية، التي كانت ثمرة مباشرة أو غير مباشرة لسطوة القمع وسلب الحريات.

## هوامش البحث ومصادره:

(١) يُنظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي: ١٩.

(٢) المحتمل في الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفياتي: ٨٣.

(٣) الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوروبية إلى المغرب: ٨.

(٤) انفتاح النص الروائي:١٠٢.

(٥) شعرية النص الموازي، عتبات النص الأدبي، كتاب الكتروني،

(٦) شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل:٧٥.

(٧) العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي:٢٩.

(٨) المصدر نفسه:١٥.

(٩) عتبات الكتابة مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي:١٦٠.

(١٠) يُنظر: لسان العرب مادة (نوت)، ويُنظر: مختار الصحاح، مادة (نوت).

(١١) النوتي:٣١١.

(١٢) المصدر نفسه:٢٤٤.

(١٣) المصدر نفسه:٣٠٤-٣٠٥.

(١٤) المصدر نفسه:١١.

(١٥) النوتي:٣١٠.

(١٦) النوتي:٤.

(١٧) المصدر نفسه:٨.

(١٨) النوتي:١٠.

(١٩) المصدر نفسه:١١.

(٢٠) الرحلة بين الواقع والخيال في أدب اندريه جيد: ١٠٢.

(٢١) النوتي:١١.

(٢٢) يُنظر: https!//alghad.com ، مجدي ممدوح، من ندوة أُلقيت في رابطة الكتاب الأردنيين، ضمن فعاليات ملتقى مشاريع الاستغراب.

(٢٣) www.aljabriabed.net ، محمد عابد الجابري، مفهوم الأنا والآخر.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) النوتي:٨.

(٢٦) مفهوم الأنا والآخر، محمد عابد الجابري.

(٢٧) النوتي: ٨.

(٢٨) المصدر نفسه: ١٤.

(٢٩) النوتي: ١٤.

(٣٠) المصدر نفسه:٩.

(٣١) الهوية والسرد:٢٤.

(٣٢) النوتي:١٥.

(٣٣) المصدر نفسه:١٥٨.

(٣٤) النوتي ١٩٢.

(٣٥) المصدر نفسه: ٣٨٨.

(٣٦) بانوراما الرواية العربية الحديثة، سيد حامد النساج، دار غريب، القاهرة، ط٢، د.ت، ٢٢٣.

(٣٧) عالم أحلام مستغانمي الروائي، رئيسة موسى كريزم، دار زهران للنشر، عمان، ط١، ٢٠١٠: ١٨٠.

(٣٨) النوتي:٢٣.

(٣٩) المصدر نفسه:٢٢.

(٤٠) النوتي:٢٢.

(٤١) المصدر نفسه:٩٣.

(٤٢) النوتي:٨٥.

(٤٣) النوتي:٨٥.

(٤٤) المصدر نفسه:٨٥.

(٤٥) المصدر نفسه:٨٧.

(٤٦) يُنظر: المصدر نفسه:٩٧.

(٤٧) النوتي:٩٧.

(٤٨) الرواية السياسية، طه وادي، الشركة المصرية العامة للنشر، لونجمان، ط٢٠٠٣،: ١١.

(٤٩) النوتي:٣٠٣.

(٥٠) المصدر نفسه:٣٧.

(٥١) يُنظر: المثقف والسلطة، ادوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني،٢٠١٣: ٨٧.

(٥٢) النوتي:١٠٦.

(٥٣) المصدر نفسه:١١٦.

(٥٤) النوتي:٣٣٥.

(٥٥) المصدر نفسه:٣٣٥.

(٥٦) موقع سعيد بنكراد مجلة علامات www.saidbengrad.net العدد٧، ١٩٩٧، ٢٠١٩/٧/٢٨.

(57) Jean Bellemin-Noel,psyehanalyse et hitterature,Que sais-je,(1752),p.16.

(٥٨) يُنظر: الشعرية، ترفيطان لهودوروف، ترجمة: شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، المغرب، ١٩٨٧م، ص٣٠-٣١.

(59) Gnller,Jonathan Structuralist Poetics.Routledge and Kegon paul,1977,p,189-190.

نقلاً عن الممنوع والمسكوت عنه في الرواية العربية.https://elaph.com

(٦٠) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، لوسيان غولدمان وآخرون، ترجمة: محمد سبيلا، بيروت ١٩٨٤، ص٣٣-٣٩.

(٦١) الأيديولوجية في الرواية، عبد الجليل الأزدي، مجلة علامات العدد٧، ١٩٧٧، مكناس، المغرب، ١٠٣-١٠٤.

(٦٢) النوتي:٨.

(٦٣) النوتي:٣٠٣.

(٦٤) المصدر نفسه:٧٠.

(٦٥) المصدر نفسه:٣٥٦-٣٥٨.

(٦٦) يُنظر: المصدر نفسه:٣٥٨.

(٦٧) النوتي:٢٢٠.

(٦٨) المصدر نفسه: ص.

(٦٩) المصدر نفسه: ص. ن.

(٧٠) النوتي:٢١٨.

(٧١) المصدر نفسه: ص.ن.

(٧٢) المصدر نفسه:٢٨.

## المصادر


- البحار، حسن، النُّوتي، لبنان – بيروت، ط١، ٢٠١٧م.
- التاج، سيد حامد، بانوراما الرواية العربية الحديثة، دار غريب، القاهرة، ط٢، (د.ت).
- الجابري، محمد عابد، مفهوم الأنا والآخر، في ٢٠١٩/٧/٩..Aljabriabed.net
- الجزار، محمد فكري، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، (د.ت).
- جمال الدين أبو الفضل محمد ، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- حسين، خالد، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، دار التكوين، للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، (د.ت).
- حمداوي، جميل، شعرية النص الموازي، عتبات النص الأدبي، ط١، ٢٠١٤م، ط٢، ٢٠١٦م، كتاب إلكتروني – شبكة الألوكة. www.alukan,net.
- ذاكر، عبد النبي، الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوربية إلى المغرب، منشورات كلية الآداب، أغادير، ١٩٩٧م.
- ذاكر، عبد النبي، عتبات الكتابة، مقاربة لميثاق المَحْكي الرحلي، مجموعة البحث في الأدب الشخصي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أغادير، ١٩٩٨م.
- الرازي، الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر(ت ٦٠٦هـ)، مختار الصحاح، إخراج: دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، ١٩٨٩م.
- ريكور، بول، الهوية والسرد، ترجمة: حاتم الورقلي.
- سعيد، إدوارد، ترجمة: محمد عناني، ٢٠١٣م.

- عبد الله، د. نادية، الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد، مجلة علم الفكر، مجلد ١٣، العدد ٤، الكويت، ١٩٥٣م.
- كريزم، رئيس موسى، عالم أحلام مستغانمي الروائي، دار زهران للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١٠م.
- لهودوروف، تزفيطان، الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت، ورجاء بن سمة، دار توبقال للنشر، المغرب، ١٩٨٧م.
- مجلة علامات، موقع سعيد بنكراد، ع٧، ١٩٩٧م، في ٢٠١٩/٧/٢٨. www.saidben grad.net.
- المحتمل في الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، رسالة دكتوراه غير منشورة، بإشراف: الأستاذ سعيد علوش، كلية الآداب، أغادير، ١٩٩٨م.
- ممدوح، مجدي، فعاليات ملتقى مشاريع الاستغراب، مقال من ندوة أُلقيت في رابطة الكتاب الأُردنيين. https// alqhad.com.
- هاشم ، صلاح الدين عثمان ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة من الروسية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
- وادي، طه، الرواية السياسية، الشركة المصرية العامة للنشر، لونجمان، ط١، ٢٠٠٣م.
- يقطين، د. سعيد، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩م.


**المصادر الأجنبية**


- Jean Bellemin- Noel Psychoanalyze et hitterature, Que sais – je (1752).
- Cnller,Jonathan Structuralism Poetics, Routle dge. And Kegon Paul,1977.

نقلاً عن: الممنوع والمسكوت عنه في الرواية العربية. https: // elaph.com.

- غولدمان، لوسيان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ترجمة: محمد سبيلا، بيروت، ١٩٨٤م.
- الأزدي، عبد الجليل، الأيديولوجية في الرواية، مجلة علامات، ع٧، مكناس – المغرب، ١٩٧٥م.